الفصل الأول

العلوم المساعدة

تمهيد – اللغات – الفيولوجيا – الخطوط – الوثائق – الأختام – الرنوك – النميات – الجغرافيا – الاقتصاد – الأدب – فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة – الفنون الموسيقية – التاريخ – طائفة من العلوم الأخرى – الارتحال والسفر .

المقبل على دراسة التاريخ وكتابته ، ينبغى أن يعلم من أول الأمر أنه مقبل على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل ، وأنه تلزمه دراسة عميقة وتحصيل جدّى متنوع ، وشأن التاريخ فى ذلك هو شأن سائر أنواع العلوم والمعارف . وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها ، ولا يمكن أن يُدرس علم معين مستقلاً بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم أو المعارف . فمثلاً لا يستطيع الدارس أن يفهم القرآن الكريم دون أن يُحسن معرفة اللغة العربية وعلوم القراءات والفقه والحديث الشريف والتصوّف والأدب والتاريخ والجغرافيا . . . وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه واستيعابه لمعانى القرآن الكريم .

وقل مثل ذلك بالنسبة لدراسة التاريخ ، التى هى متصلة بأنواع مختلفة من المعرفة الإنسانية . فمن الضرورى للمؤرخ أن يكون واسع الثقافة ، عارفًا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته . ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة للمؤرخ – أو لغيره من الدارسين والباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم – بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصِّلة . ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتتفاوت – بالنسبة لدارس التاريخ – باختلاف العصر أو الناحية التى يرغب فى دراستها والكتابة عنها . فالعلوم المساعدة اللازمة لدراسة تاريخ اليونان القديم تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لدراسة تاريخ عصر النهضة أو تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى أو تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

واللغات من أهم العلوم المساعدة التى ينبغى أن يتزوّد بها الباحث فى التاريخ . فلا بد أولا من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخى المراد بحثه والكتابة عنه . لأن الترجمات التى تكفى لتحصيل الثقافة العامة لا تفى حاجة المؤرخ للتوفر على تفهّم الناحية التى يريد أن يتناولها . والراغب فى الكتابة عن ناحية من تاريخ اليونان القديم لا بد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة . والراغب فى الكتابة عن موضوع من تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا يلزمه أن يكون عارفًا بلاتينيتها ، ومَنْ يرغب فى الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة لا بد له من معرفة اللغة الإيطالية . وهكذا . وتتفاوت أهمية اللغة الأصلية بالنسبة للموضوعات التاريخية المختلفة . فالراغب مثلاً فى الكتابة عن ناحية من الثورة الفرنسية الكبرى تكون اللغة الأصلية بالنسبة له هى اللغة الفرنسية — لا اللاتينية — التى لا داعى للتعمق فى دراستها فى هذه الحال . ومن الأفضل له أن يُنفق جهده فى تعلّم لغة أوروبية أخرى بعد الفرنسية . ولكن اللاتينية تُعدّ لغة أصلية ضرورية بالنسبة لِمَنْ يرغب فى دراسة تاريخ الكنيسة حتى فى العصر الحديث .

وكلما تعدّدت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التى يُلم بها الباحث ، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء . فعليه أن يكون حريصًا على دراسة ما يلزمه منها مهما كانت قديمة أو صعبة أو نادرة مثل اللغة المصرية القديمة أو اللغة الصينية أو العربية أو الفارسية أو الروسية . . . حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى . وهذه كلها أدوات أساسية لا يمكن بغيرها السير قُدُمًا فى سبيل البحث التاريخى العلمى .

وكذلك ينبغى على الباحث فى التاريخ أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبية الحديثة الشائعة الاستعمال كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية . وإن قصَّر فى معرفة بعضها فيمكنه أن يواظب على دراستها ، حتى يبلغ المستوى الذى يتيح له فرصة الإفادة بها . وهذه لغات غنية بتراثها الأدبى والتاريخى ، ويجتذب انتشارها كثيرًا من الباحثين فى التاريخ إلى التأليف فيها ، ولا يجوز أن يفوت المؤرخ الثمرات التاريخية التى تنتظمها هذه اللغات كلها أو بعضها .

وقد تبدو مسألة تعلُّم اللغات — الأصلية أو العامة — أمرًا عسيرًا ، وربما تجعل أشجع الناس يتردد فى الإقدام على دراستها . ولكنها دراسة أساسية لِمَنْ يرغب جديًّا فى دراسة التاريخ وكتابته . ويحسن بالدارس أن يبدأ فى دراسة ما يلزمه من اللغات فى أثناء وجوده بالمعاهد النظامية . وليس هناك ما يمنعه من أن يتعلم لغةً ما ، فى أى وقت شاء من حياته . وإن دراسة سنتين فى إحدى اللغات الجديدة على الباحث كافية كأساس مبدئى يستمر بعدها فى المزيد ، ويا حبذا لو أمكنه قضاء بعض الزمن ، وفى فترات متتابعة ، فى بلد تلك اللغة الجديدة عليه .

والفيلولوجيا (philology) — فقه اللغة — من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة فروع كثيرة من التاريخ . وكلما بَعُدَ العصر الذى هو موضوع الدرس ازدادت أهمية الفيلولوجيا ، إذْ لا بد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخى المعيَّن . وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاماً حسابية تُستخدم كما فى العلوم الطبيعية للدلالة على معانٍ وكميات محدّدة ، ولكن اللغة كائنٌ حىٌّ ينمو ويتغيَّر ويتطوّر تبعًا لظروف المكان والزمان ، ولتغيّر الإنسان ، واختلاط الثقافات . وفى بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوى على معنى محدد تمامًا ، كما يمكن أن يدل اللفظ اللغوى على معانٍ نسبية أو متغيّرة أو متضادة ، وقد تدل كلمة واحدة على معان متفاوتة أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه . وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية فى دراسة التاريخ — كما فى غيره من الدراسات وعلى الأخص فى الدراسات الأدبية . وبذلك فلا بد من معرفة اللغة التى يقرأ فيها دارس التاريخ ، فضلا عن الدراية بما نال ألفاظها من المعانى المتفاوتة أو المختلفة ، حتى لا يفسّر ما يقرأ على غير حقيقة .

وعلم قراءة الخطوط (paleography) من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ ، منذ أقدم العصور حتى أزمان متأخرة . وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبدّى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها . ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتُجنبه الوقوع فى كثير من الخطأ . وتتضح أهمية هذه الدراسة فى فروع عديدة مثل تاريخ مصر القديم ، وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام ، وتاريخ اليونان ، وتاريخ الرومان ، وتاريخ العصور الوسطى ، والتاريخ الأوروبى

الحديث حتى جزء من القرن السابع عشر ، وتاريخ الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بالنسبة للغات التى تتعلق بهذه الموضوعات . أما بعد ذلك فتصبح الخطوط واضحة مقروءة.

ولقد نَمَتْ الخطوط العربية — مثلاً — وتطورت وكُتبت بأشكال مختلفة . فمنها الطومار[١] . ومنها النسخى والرقعة والثلث والكوفى والفارسى والمغربى والغُبار[٢]. وتوجد أنواع لكل من هذه الخطوط يحتاج قراءة بعضها إلى التعليم والتدريب . وفى الشرق الأدنى العثمانى — حيث كانت اللغة التركية العثمانية تُكتب بالحروف العربية — كُتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط ، مثل الخط الديوانى[٣] ، وخط القيرمه[٤] . وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليماً خاصاً . وخط القيرمه مثلاً خط معقّد كثير الزوايا والثنايا ، ويمكن أن تُكتب به معلومات كثيرة فى حيز ضيق ، فضلاً عن الأرقام الخاصة به . ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية . ولكى يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرية .

ومجموعات وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة — مثلاً — تحتوى على آلاف الوثائق عن تاريخ مصر المالى والإدارى فى العهد العثمانى وفى عهود محمد على وخلفائه ، وأغلبها مدون باللغة التركية وبخط القيرمه . وكذلك توجد مجموعات لا تُحصى من الوثائق المدونة بهذا الخط فى تركيا وفى كثير من المناطق التى خضعت للإمبراطورية العثمانية [٥]. وستظل معلوماتنا عن هذه القرون الطويلة قاصرة وناقصة حتى يوجد مَنْ يتعلم قراءة خط القيرمه ، ويتمكن من دراسة ما تتضمنه مخطوطاته من المعلومات

---

(١) الطومار نسبة إلى قلم الطومار وكان يكتب سلاطين مصر بهذا الخط علاماتهم على المكاتبات ومناشير الإقطاع .

(٢) سمى الغبار كذلك لدقته بسبب الصعوبة فى رؤيته وكأنه ذرات الغبار . وبه كتبت بطائق الحمام الزاجل ويسميه بعضهم قلم الجناح .

(٣) الخط الديوانى من الخطوط العثمانية وكتبت به الأوامر السلطانية والفرمانات والإنعامات .

(٤) قيرمه من قيرمق التركية بمعنى الثنى والتكسير ، وشاع استعمال هذا الخط فى مصر ابتداء من القرن ١١ هـ .

(٥) توجد مثلا بالمكتبة الظاهرية فى دمشق مجموعة من الوثائق مكتوبة بخطى الديوانى والقيرمه وترجع إلى القرن ١١ هـ . ومما تتناوله مسائل تتعلق بتاريخ فخر الدين المعنى الثانى أمير لبنان .

على مدى سنوات طويلة *

ونجد الخطوط الأوروبية — مثلاً — قد نَمَتْ وتطوّرت واختلفت من عصر إلى آخر ، وطرأت على كتابتها تغييرات مستمرة على الحروف الصغيرة وعلى الحروف الكبيرة ، ونشأت خطوط خاصة فى أوقات معينة ، ووجدت اختصارات لبعض الألفاظ ، مثل كتابة الجزء الأول من الكلمة أو من أجزائها . وأحياناً وُضعت علامات فوق الحروف للدلالة على كلمة ما . فلا بد من دراسة الخطوط اللازمة للباحث فى التاريخ ، حتى يمكنه الرجوع إلى الوثائق التى دُوِّنت بها .

* كان زميلى الأستاذ محمد محمد توفيق المتخرج فى كلية الآداب بجامعة (القاهرة) فى سنة ١٩٣٢ ، كان يعمل كفهرس ومترجم للوثائق التركية بدار المحفوظات المصرية بالقلعة فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن الحالى ، وقد كتب فى مجلة الهلال عدد مايو ويونيو ١٩٤١ مقالا عن « الحلقة المفقودة فى وثائق تاريخ مصر الحديث » قدم فيه موجزاً عاماً عن مضمون هذه الأصول التاريخية . وكذلك نشر كتيباً عن « إلغاء نظام الالتزام فى عهد محمد على الكبير » ، فى القاهرة سنة ١٩٤١ ، ونشر فى الوقت نفسه ترجمته بالفرنسية ، وقد قام بالترجمة الأستاذ إبراهيم المويلحى الذى كان يزامله فى العمل بدار المحفوظات المصرية بالقلعة وقتئذ ، واعتمد فى ذلك على الوثائق المحفوظة فى تلك الدار . وقد كان للأستاذ محمد توفيق الفضل فى اشتراكنا معاً فى كتابة فصل بعنوان « تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) » نشر فى كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » فى سنة ١٩٤٢ ، والذى سيأتى ذكره بعد . وقد وضع رسالة بعنوان « مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثمانى فى مصر » مع دراسة خط القيرمه وكتابة مشق له ، فضلا عن قاموس خاص بمصطلحات الموضوع ، ونال بها درجة الماجستير فى الآداب من كلية الآداب بجامعة (القاهرة) فى سنه ١٩٤٣ . ولم يوفق الأستاذ محمد محمد توفيق إلى نشر هذه الرسالة . ولظروف خاصة ، ربما كان من بينها عدم تقدير الجامعة والجهات المعنية بالدراسات التاريخية لهذا النوع من الدراسة ، كف عن متابعة دراسته ، وعاش فى شبه عزلة عن العالم ، وعكف على دراسة الشعر وقول القريض . وقد نحى فيه منحى شعراء العصر الجاهلى . ومن مؤلفاته فى هذا الصدد قصيدة « المعلقة الإسلامية فى تاريخ الكعبة والمسجد الحرام » ونشرت بالقاهرة فى سنة ١٩٥٥ . وله قصيدة لم تنشر وتقع فى أكثر من ألف بيت عن « نهر النيل » ، وقد قرأناها معاً غير مرة . وخرج من عزلته بعض الشىء منذ حوالى تسع سنوات ، تولى فى أثنائها تدريس شىء من اللغة التركية ، وشىء من الوثائق العثمانية فى كليتى الآداب بجامعتى القاهرة وعين شمس . وكان يفد عليه من وقت لآخر بعض المشتغلين بدراسة التاريخ ، وأخص بالذكر منهم استانفورد شو الأمريكى الذى زار مصر والشام وتركيا خلال ١٩٥٥ — ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، وأفاد من علمه وخبرته بالوثائق العثمانية فى مصر ، فى سبيل إعداد رسالته عن « النظام المالى والإدارى وتطور مصر العثمانية من ١٥١٧ إلى ١٧٨٩ » والتى نال بها درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة پرنستون فى ولاية نيوجيرسى بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرتها تلك الجامعة فى سنة ١٩٦٢ . وقد ذهب الأستاذ محمد محمد توفيق منظم الوثائق المترجم المفهرس الشاعر الرقيق المرهف الحس الدمث الطبع الوفى الأمين — ذهب إلى بارئه فى يونيو سنة ١٩٦٣ ، تاركاً فراغاً لا يعوض فى علم الوثائق العثمانية وفى عالم الخلق السامى والذوق الرفيع .

وتوجد أحياناً وثائق أوروبية – أو غير أوروبية – كتبها سفراء الدول وقناصلها ومبعوثوها إلى حكوماتهم بالأرقام (الشفرة) ، وذلك لإخفاء مضمونها عمّن يُحتمل أن تقع فى أيديهم من الأعداء أو غير المرغوب فيهم أن يطلعوا عليها من غير الأعداء . فينبغى أن يلمّ دارس التاريخ بالطريقة التى تُمكّنه من حلّ رموز هذه الأرقام (الشفرة) ، بواسطة المفتاح الخاص بها ، إن وجد فى دار المحفوظات التاريخية أو (الأرشيف) الذى يعمل به . ويوجد بالأرشيف الواحد أكثر من مفتاح واحد بطبيعة الحال وتبعاً للظروف . وتختلف مفاتيح دور الأرشيف من بلد لآخر ، ففاتيح أرشيف الڤاتيكان تخالف مفاتيح دور الأرشيف فى فلورنسا أو پيزا أو البندقية أو ڤينا أو پاريس أو لندن . ولا بد للباحث فى التاريخ من الإلمام بحل رموز هذه الدور إذا اقتضت دراسته زيارة تلك البلدان .

وكذلك نجد علم الوثائق أو علم الدپلومات (diplomatics) من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ . والوثائق فى المعنى العام تدل على كل الأصول التى تحتوى على معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دُوّن منها على الورق . ولكنها فى المعنى الدقيق الذى اصطلح عليه الباحثون فى التاريخ ، هى الكتابات الرسمية – أو شبه الرسمية – مثل الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية ، والكتابات التى تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة ، أو عادات الشعوب أو نظمهم وتقاليدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف ، أو المشروعات أو المقترحات المتنوعة التى تصدر عن المسؤولين فى الدولة أو التى تُقدّم إليهم ، أو المذكرات الشخصية أو اليوميات .

فينبغى على دراس التاريخ أن يتعلّم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذى يعنيه . ولا بد له من أن يعرف نوع المداد المستعمل فى الكتابة وتركيبه ، والأقلام التى كُتب بها ، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه ، مثل العلامات المائية والألياف ، التى تتضح عند تعرّض الورق للضوء . وتُستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط والحبر والورق ، فبواسطة بعض العدسات المكبرة الخاصة وبواسطة المجهر يمكن تحديد ضغط القلم وميل الكتابة ، والصفات الخاصة بالكاتب وطريقة كتابته لبعض الحروف ، ولون الحبر . وكذلك يمكن بواسطة المجهر والتحليل

الكيميائى معرفة عمر الورق . وأحيانًا يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء والبنفسجية لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المُغَيَّرة عمدًا . وكل هذه المعلومات الجوهرية تساعد الباحث على التثبُّت من صحة الوثائق التى تقع تحت يده أو بطلانها * .

ويتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التى تُمهر بها ، وهى ذات أنواع وأشكال مختلفة . وقد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولا تزال مستخدمة حتى اليوم . ووُجدت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص ، واستخدمها البابوات والملوك والأمراء بخاصة فى أزمنة مختلفة . ووُجدت أختام الذهب بخاصة عند ملوك الكارولنجيين فى أثناء العصور الوسطى . وظلت تُستخدم عند بعض الأسرات الحاكمة حتى أزمنة حديثة . ولقد تعدّدت أشكال الأختام بعامة ، فمنها المستدير . ومنها البيضىّ . ومنها ما له شكل المثلث أو القلب أو الصليب مثلا . ومعرفة أنواع الأختام تفيد الباحث فى التثبت من صحة الوثائق التى يقوم بدراستها .

ومن العلوم المساعدة فى دراسة التاريخ علم الرنوك (heraldry) وهى الشُّعُر أو العلامات المميزة التى تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والجند أو على الأعلام . ولقد عرف القدماء هذه الرنوك أو العلامات المميزة ، وعرفها أهل العصور الوسطى . فعرفها الشرق الإسلامى — مثلا — واستخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون . للدلالة على وظائف أرباب السيف . ومن هذه العلامات نجد الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال والصليب وذيل الحصان وزهرة الزنبق .

وفى أثناء الحروب الصليبية — مثلاً — نجد هذه الرنوك أو العلامات قد نَمَتْ وتقدّمت تبعًا للظروف . فلقد استلزم تجمُّع فرق العسكر من شعوب مختلفة التميزَ بينهم ، حتى لا يقع الخلط والاضطراب فى صفوفهم . وكذلك أصبح للنبلاء والوزراء والقضاة وكبار الموظفين ورجال الكنيسة وطوائف الرهبان ، وبعض المدن ، ونقابات المهن والحرف ، علامات خاصة بها . وأصبحت ذات أهمية كبيرة فى حياة المجتمع الإقطاعى فى أوروبا فى أثناء العصور الوسطى ،

* Vincent: J.M. : Aids to Historical Research. New York, 1924. p. 53.

وصارت مرتبطة بأشخاص حامليها ، وذات حقوق قانونية ووراثية .

وإن معرفة الباحث فى التاريخ بهذه الرنوك تجعله قادرًا على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك. وفى الوثائق مثلاً قد يمحى الإمضاء أو التاريخ ، وفى هذه الحال تساعد العلامة الواضحة على الختم — إن وجدت — فى التعرّف على شىء أو أشياء من حقيقتها .

وعلم النميات أو النومات (numismatics) أى علم النقود والمسكوكات، من العلوم الهامة فى دراسة نواح من التاريخ . فالعملة والأنواط بما تحمله من صور الآلهة وصور الملوك والأمراء وأسمائهم ، وذكرى الحوادث التاريخية ، وسنوات ضربها ، تُقدّم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء . فالعملة اليونانية — مثلاً — تكشف عن كثير من الحقائق فى تاريخ الجماعات السياسية التى كانت ذات كيان خاص مكّنها من أن تسكّ هذه العملة . ولم يُعرف وجود بعض هذه الجماعات إلا عن طريق عملتها التى حفظها التاريخ من الضياع . وتساعد العملة — والمسكوكات بعامة — فى دراسة تاريخ الأساطير والعبادات والفنون والعلاقات السياسية ، ونشاط التجارة أو فتورها . وكذلك الحال بالنسبة للعملة والمسكوكات التى صنعتها الحكومات والدول والمقاطعات والمدن والهيئات الدينية أو العلمانية فى أنحاء أوروبا فى أثناء العصور الوسطى . ونجد مثلاً آثار العملة الصينية فى شرقى أفريقية ، وآثار العملة العربية فى شمال غربى أوروبا ، وآثار العملات الإيطالية فى المشرق ، دليلاً على مدى نشاط التجارة بين هذه الأنحاء المتباعدة من العالم ، فى أثناء العصور الوسطى . ونجد مثلاً انتشار الفلورن الفلورنسى منذ عصر النهضة ، فى أنحاء أوروبا ،وبقاء اسمه مستخدمًا حتى اليوم فى بعض العملات الأوروبية — كما فى المجر — دليلاً على مدى النفوذ السياسى والاقتصادى الذى تمتعت به فلورنسا فى ذلك العصر .

والجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ . والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا . فالأرض هى المسرح الذى حدثت عليه وقائع التاريخ ، وهى ذات أثر كبير فى توجيه مصائر النوع الإنسانى . فهى التى أطعمت الإنسان

وأنشأته وعيّنت واجباته ، وأوجدت المصاعب والعقبات الطبيعية التى تشحذ قريحته للتغلّب عليها وللتأثير بدوره فى البيئة التى يعيش فيها والعمل على استغلالها .

وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير — مع غيرها من المؤثرات — فى الإنسان وبالتالى فى التاريخ ، وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها. فالسهول ، والجبال ، والصحارى ، والوديان ، والأنهار ، والبحار ، والخلجان ، والغابات ، والجزر ، والمناخ ، والرياح ، ونوع الثروة الطبيعية ، والموقع الجغرافى ، تؤثر كلها فى تكوين الإنسان ، وتؤثر فى لغته ونبرة صوته ، وفى لون بشرته وعينيه وشعره ، وفى أساطيره وأديانه ، وفى ملكاته العقلية ، وفى فكره وفلسفته وصوفيته ، وفى أدبه ، وفى موسيقاه ، وفى هندسته ومعماره ، وفى علمه ، وفى طبه ودوائه ، وفى رسمه وتصويره ونحته ، وفى خُلُقه وسيكولوجيته ، وفى مدنه وحقوله وقراه ، وفى قوانينه وشرائعه ، وفى حِرفه ومهنه ، وفى فقره وغناه ، وفى حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفى مذلّته وإبائه ، وفى سير معاركه ، وفى حربه وسلامه .

فيعتقد بعض السكان فى المناطق الباردة — مثلاً — أن الجحيم عبارة عن عالم يسوده الظلام الحالك والزمهرير والبرد القارس ، ويعتقد بعض الساكنين فى المناطق الدافئة أن الجحيم عالم تغلب عليه الحرارة والنيران المتأججة المستعرة أبداً . ويرتبط — مثلاً — سير المعارك الحربية بالتضاريس الأرضية . فعلى المؤرخ أن يعرف هل كان مركز أحد المتحاربين أفضل من مركز الآخر ، وهل سيطر على منافذ بعض الجبال ؟ أو هل كانت أرض المعركة أرضاً سهلة ، وكان من الميسور التحرك فيها ، أم كانت منطقةً مليئة بالمستنقعات ، أم احتوت على مخابئ وثنيات ؟ وهل كان الجو فى يوم أو فى أيام المعركة صحواً أم كان عاصفاً مطيراً ، أم كان حاراً قائظاً ؟

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا فى التاريخ ما نلاحظه من تدخلها أحياناً تدخلا حاسماً فى تغيير مجرى التاريخ . فمثلاً عاق البحر تقدم تيمورلنك عن العبور إلى أوروبا بعد أن هزم بايزيد الأول فى موقعة أنقرة فى سنة ١٤٠٢ ، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة ، فاستعادت مكانتها بعد قليل ،

وأدت للشرق الأدنى دورها التاريخى فى عصر تقدمها وقوّتها . وساعدت العواصف والأنواء الأسطول الإنجليزى فى التغلب على الأرمادا الأسبانية الضخمة فى سنة ١٥٨٨ مما أدى إلى هبوط أسبانيا وارتفاع شأن إنجلترا . وسهول روسيا الشاسعة وشتاؤها القارس كانت عوامل أدت إلى إخفاق حملة نابليون عليها فى سنة ١٨١٢ ، وكذلك الحال بالنسبة لزحف جحافل هتلر عليها من بحر البلطيق حتى البحر الأسود فى سنة ١٩٤١ .

ولدراسة تاريخ مصر — مثلاً — لا بد من معرفة أحوالها الجغرافية . فالنيل هو مصدر حياة مصر وهى هبته الكبرى . ولقد تركزت حياة المصريين القدماء فى هذا الوادى الضيق الخصيب . وعلمهم فيضان النيل المنتظم هندسة الرى ، وجعلهم يدركون معنى الوحدة ومعنى التعاون فى سبيل تحقيق المصلحة المشتركة . والصحارى المحيطة بوادى النيل نظّمت اتصاله بالعالم الخارجى وحدّدت هجرات الشعوب منه وإليه . وموقع مصر الجغرافى أتاح لها الفرصة لتكوين إمبراطورية عظيمة فى عهد تحتمس الثالث .

وكذلك موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب جعلها تجمع — مع غيرها من دول أوروبا — ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها فى أثناء العصور الوسطى ، وبفضلها استطاعت أن تشيد حضارة متقدمة ، وأن تقف أمام قوى الغرب فى أثناء الحروب الصليبية ، وإن كانت هذه قد انتهت — فى هذا الصدد — إلى المزيد من النشاط فى تلك التجارة العالمية ، بعد أن وضعت تلك الحروب أوزارها . وحينما تحوّل طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح ، بفضل الكشوف البرتغالية فى أواخر القرن الخامس عشر ، وكجزء متمم لحركة النهضة الحديثة ، التى كانت ثورة إنسانية كبرى ، أصيبت مصر — وغيرها من دول أوروبا والبندقية بخاصة — بضربة قوية ، فهبطت تجارتها ، واختلّت ماليتها ، واضطرب نظامها السياسى ، حتى لم يقو السلطان الغورى على أن يقف فى وجه القوات العثمانية الزاحفة عليه فى سنة ١٥١٦ ، وبذلك زالت دولة المماليك من الوجود السياسى فى سنة ١٥١٧ . ومع ذلك فإننا نجد أن موقع مصر الجغرافى ذاته قد مهّد الفرصة لمحمد على الوالى العثمانى — لا لمحاولة الاستقلال بمصر فحسب — بل لغزو الدولة العثمانية فى أرضها ،

ولمحاولة إقامة إمبراطورية مصرية قوية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وللجغرافيا تأثير واضح فى التاريخ الإيطالى بعامة فى كل العصور . فموقع شبه الجزيرة وامتدادها فى وسط البحر الأبيض المتوسط ، كان من العوامل الهامة التى ساعدت روما القديمة فى السيطرة على هذا البحر . وامتدادها الطويل الضيق واختراق جبال الأپنين لها ساعد على قيام الجمهوريات والمدن الإيطالية المستقلة بها فى أثناء العصور الوسطى ، بعد أن استقرت أحوالها عقب غارات البرابرة ، ونشأ بين أجزائها صراع طويل ، وكان ذلك من العوامل فى إذكاء نشاط أهلها ، فظهرت بها أجيال من العباقرة فى شتى ميادين العلم والفن والأدب ، وكان من ثمرة ذلك انبلاج عصر النهضة بها ، الذى يُعدّ بعناصره المتنوعة من غربية وشرقية ، من الأسس الهامة فى بناء الحضارة الحديثة . وحينما لم توجد من بين أجزاء إيطاليا قوة بعينها تستطيع بإمكانياتها وسطوتها أن توحد شبه الجزيرة ، أضحت إيطاليا بثمراتها ونفائسها العظيمة محطًّا لأطماع جيرانها الأقوياء ، حتى صارت تلك الأطماع محورًا للسياسة الأوروپية الفرنسية الأسپانية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وإذا نظرنا إلى جزء معين من إيطاليا نجد البندقية — مثلاً — قد حفظها اللاجون من غارات القوط والهون ، فتوفرت لها الفرصة لكى تنشأ وتنمو رويدًا وبالتدريج . ووقوعها على رأس الأدرياتيك وإحاطتها بطرق برية سهلة جعلاها مركزًا للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، فكسبت — مع دولة المماليك — ثروةً طائلةً ، ونَمَتْ وامتدّت فى الشرق الأدنى فى أثناء العصور الوسطى ، ثم تقلّصت واضمحلت — هى ودولة المماليك — حينما تحوّل طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح ولشبونة ، واضطرت البندقية إلى أن تتجه نحو لشبونة فى سبيل البقاء .

ووجود صقلية فى جنوب إيطاليا وفى وسط البحر الأبيض المتوسط جعلها عرضةً لغارات ومؤثرات بشرية وحضارية مختلفة ، فتأثرت باليونان والقرطاجنيين والرومان والعرب والنورمان والأسپان . وامتزجت بها هذه العناصر المتنوعة المختلفة وتفاعلت ، فأصبحت صقلية مغايرةً لسائر أنحاء إيطاليا ، وتطورت بها بذور حضارة

جديدة تجلّت ثمارها فى الفكر والعلم والأدب فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فى عهد فردريك الثانى الذى يعدّه بعض الباحثين أول رجل فى العصر الحديث . وبذلك ظهرت فى صقلية إحدى المراحل الأولى التى أدت إلى بزوغ حضارة عصر النهضة فالعصر الحديث .

ونلاحظ — مثلاً — أن انفصال الجزر البريطانية عن القارة الأوروبية قد حوّلها من مجرد بقعة نائية فى طرف قارة كبيرة ، إلى بلاد مستقلة بذاتها ذات نظم خاصة بها . فموقعها الجغرافى الفريد منع أوروبا من التدخل فى شؤونها منذ قرون عديدة ، بعد أن قويت واشتدّ ساعدها . وفى الوقت نفسه جعلها موقعها الجغرافى قادرةً على أن تسيطر على البحار . وتتدخل فى الشؤون الأوروبية تبعاً للظروف ، وساعد ذلك على أن يُملى عليها سياستها الإمبراطورية الاستعمارية . وتيار الخليج مثلاً جعل مناخ ليفربول أدفأ من مناخ دانتزج وهما على خط عرض واحد ، وأصبحت البحار المحيطة بإنجلترا لا تتجمّد وصالحةً للتجارة طول العام ، بعكس بحر البلطيق . ووجود مناجم الفحم والحديد من أنواع جيدة فى مناطق واحدة جعل إنجلترا دولة صناعية عظمى . واتساع مصب نهر التيمس وعمقه جعل لندن مرفأ تجاريّاً عظيم الأهمية .

وهذه كلها أمثلة توضح لنا أهمية الجغرافيا لدارس التاريخ ، وتبين إلى أى مدى يرتبط أحدهما بالآخر . فعلى الباحث فى التاريخ أن يعرف الأحوال والعوامل الجغرافية المختلفة التى تحيط بالشعب أو بالعصر أو الناحية التى يدرسها ، على النحو الذى يزيد من إمكانيته فى البحث والدرس والفهم .

والاقتصاد من العلوم الأساسية التى يساعد الإلمام بها على دراسة التاريخ ، إذْ أن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعّال فى سير التاريخ . فالثروةُ الطبيعية فى بلدٍ ما تحدّد نوع الإنتاج الزراعى والصناعى ، ونوع التبادل التجارى ومدى نشاطه . وطريقةُ توزيع الثروة الطبيعية أو الأموال ومدى تركزها فى يد طبقة أو طبقات معينة ، أو مستوى توزعها بين فئات أكثر عدداً ، يؤثر فى السياسة الداخلية لدولةٍ ما ، ويؤثر فى نظام الحكم بها ، وفى مستوى الرخاء أو الفقر ، وفى حياة الشعب ، وفى علاقة طوائفه بعضها ببعض ، ويؤثر فى مستوى

العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها ، وتؤثر الظروف الاقتصادية فى علاقة الدولة بالعالم الخارجى ، سواء أكان ذلك فى الناحية الاقتصادية البحتة ، أم فى العلاقات السياسية ، وكذلك تؤثر فى مستوى قوتها العسكرية ومركزها فى المجتمع الدولى .

ومن الأمثلة على أثر الظروف الاقتصادية فى مجرى التاريخ ، ما نلاحظه من أن العامل الاقتصادى كان من بين العوامل الهامة التى أدت إلى اندفاع العرب — عند ظهور الإسلام — من شبه الجزيرة ، التى يغلب على أكثرها الطبيعة الجدبة ، إلى سهول العراق الفسيحة وربوع الشام المورقة . ويرجع ثراء المماليك والبنادقة وقوتهم فى أثناء العصور الوسطى ، إلى مرور التجارة العالمية بأراضيهم ، وكان تحوّل طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح إيذانًا بتدهورهم جميعًا ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل . ومن الأمثلة فى هذا الصدد ما كنا نجده من أن احتياج البندقية إلى قمح الدولة العثمانية ، كان من بين الأسباب التى جعلت البندقية تجنح إلى مسالمة السلطان العثمانى عند ما كان يهددها بمنع إرسال القمح إلى أراضيها ، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وكذلك نجد أن الانقلاب الصناعى الذى حدث فى أوروبا فى القرن الثامن عشر نتيجة للمخترعات الحديثة ، قد أحدث ثورةً فى النظم الاقتصادية ، مما أملى على دول أوروبا الغربية سياسة التوسع والاستعمار للحصول على المواد الخام ، ولإيجاد أسواق لتصريف المنتجات الصناعية .

ولقد حاول كل من نابليون وإنجلترا استخدام السلاح الاقتصادى ، من بين الوسائل الأخرى ، للقضاء على الآخر ، فى ذلك الصراع العنيف الذى نشب بينهما . فكانت حملة نابليون على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر تهدف فيما تهدف إليه إلى تهديد مركز إنجلترا الاقتصادى فى الهند . وكذلك ضرب كلٌّ منهما الحصار الاقتصادى على الآخر لكى يحمله على الاستسلام والخضوع .

والظروف الاقتصادية واضحة الأثر فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وفى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) ، وفى العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى بعضها وبعض ، وهى من الأسباب الرئيسة للمشاكل والاتجاهات المختلفة البادية فى شتى أنحاء العالم ، لدى الشعوب والأمم الكبيرة أو الصغيرة ،

العريقة أو الناشئة ، المتقدمة أو الناهضة أو البدائية . وستظل الظروف الاقتصادية عاملاً هامًّا فى توجيه مصائر الشعوب بل الإنسانية جميعًا ، وقد يؤدى التنافس فى سبيلها إلى كوارث وويلات تحل بالبشرية ، كما يمكن أن يؤدى التفاهم والتقدير المتبادل فى شأنها إلى أن تسلك البشرية فى حياتها سبيلاً معقولاً .

وهذه أمثلة على أهمية الظروف الاقتصادية التى تُعدّ عنصرًا أساسيًّا — ولكنه ليس وحيدًا — فى فهم وتفسير التاريخ . فينبغى على الباحث فى التاريخ أن يُلمّ بتاريخ الحركات الاقتصادية ، ويدرس الأحوال الاقتصادية للعصر أو الناحية التاريخية التى يتناولها بالدراسة ويرغب فى الكتابة عنها .

والأدب وثيق الصلة بالتاريخ ، فهو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه ، وهو يفصح عن دخائل البشر ويصوّر أحلامهم وأمانيهم ، ويرسم نواحى مختلفة من حياتهم الواقعة ، من حياة الأفراد أو الجماعات ، ومن حياة المدينة أو الريف ، بل ومن النظم ، ومن الحال الاقتصادية ، ومن العلم والفن ، ومن الحرب والسلام ، ومن كل ما يقع تحت حسّ الإنسان ويدخل فى نطاق إدراكه أو تصوّره .

فالأدب المصرى القديم، مثلا، على الرغم من قلة ما وصل إلينا من آثاره ، يساعد الباحث فى التاريخ على فهم نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة . فالبيئة المصرية بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها قد أوحت إلى الكتّاب المصريين القدماء بالتعبير عن مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة . فهم كتبوا عن الآلهة وعن الحياة الآخرة ، وكتبوا فى الغزل وصوّروا الحب والتمنّع والغيرة والشجن ، وأنطقوا الطير والشجر ، وتغنوا بجمال الطبيعة ، ودعوا إلى التمتع بالحياة قبل فوات الوقت ، ودوّنوا قصصًا خياليًّا رسموا فيه حياة الأبطال ، ونظموا الأناشيد والأغانى ، وكتبوا فى الأدب التعليمى لتهذيب الأبناء والتلاميذ ، وتركوا آثارًا فى فن الحكم والسياسة وفى أحوال المجتمع . كما حملوا على التقاليد ، وأظهروا عقولاً حرةً تدعو إلى التفكير والجدل . فهذه الصور الأدبية كلها تشرح حياة المصريين القدماء فى نواح كثيرة ، ولا يمكن لدارسٍ أن يُقبل على بحث تاريخهم دون أن يتذوق أشياء من ثمرات أدبهم ، التى تُعينه على فهم عقليتهم وعاداتهم وحياتهم ، وبذلك

تصبح دراسة تاريخهم أسهل عليه وأيسر .

والباحث فى ناحية من التاريخ الإيطالى فى القرن الرابع عشر مثلاً ، لا يمكنه أن يفهم موضوع بحثه دون دراسة آثار دانتى الأدبية * . فهو يصوّر فى كتاباته العواطف الإنسانية ، ويرسم الإنسان الذى يتألم والذى يتعرض للخطيئة ، ويصوّر القلب الملىء بالأسرار ، ويرسم اليأس والأمل ، والغلظة والرقة ، والطغيان والحرية ، والظلم ، والعدالة ، والشقاء ، والسعادة ، والكراهية والمحبة . وتشرح آثاره الأدبية مساوئ العصر الذى عاش فيه ، وتبين رغبته وأمله ووسائله فى إصلاح المجتمع البشرى ، بتحرير الناس من أدرانهم ، وبتعليمهم وتهذيبهم وصقلهم ، حتى يكونوا مواطنين صالحين ، ثم بالقضاء على الأحزاب السياسية والمنازعات الداخلية ، وإيجاد إمبراطور عالمى يبسط عدالته ورعايته على أنحاء العالم وينظّم العلاقة بين كل دولة ورعاياها ، وبين الدول بعضها وبعض . وكذلك كان من وسائل إصلاحه للمجتمع البشرى ، الدعوة إلى فصل السلطة الإمبراطورية الزمنية عن السلطة البابوية الدينية ، وتآلفهما معاً على السير بالعالم فى طريق الأمن والسلام والرفاهية ، وهذا هو ما ظلّ يساور أذهان بعض الفلاسفة والمفكرين والساسة منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر .

فكتابات دانتى المتنوعة تشرح — فيما تتناوله — هذه النواحى المختلفة فى الحياة الإيطالية فى أواخر العصور الوسطى ، وتمهّد لعصر النهضة فالعصر الحديث ، والإلمام بها شىء ضرورى لتناول كل ناحية من تاريخ ذلك الزمان ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الإلمام بأشياء من آثار دانتى الأدبية أمر ضرورى لدراسة كل ناحية فى التاريخ أو المجتمع الإيطالى حتى الوقت الحاضر .

---

* دانتى أليجييرى (١٢٦٥ – ١٣٢١ . Dante Alighieri) أحد عظماء الشعراء فى العالم ويعد واحداً من العباقرة الأربعين أو الخمسين الأوائل فى تاريخ البشرية . عاش حياة متأرجحة وتعرض لأهواء السياسة الحزبية وقاسى من حياة المنفى . وامتاز برهافة الحس وصدق القول ودقة التعبير . وأعظم آثاره الأدبية هى «الكوميديا» التى سميت فيما بعد بالإلهية . وهى ثلاثة أقسام الجحيم والمطهر والفردوس . وقد استمدها من عناصر وثقافات متنوعة من القديم والحديث ، ومن الشرق والغرب والجنوب ، ومن الأسطورة والتاريخ والسياسة والعلم والدين واللاهوت والفلسفة والطبيعة والمجتمع والفن ، كما استمدها من ذاته . ومع أن العالم الآخر هو مسرح الكوميديا فهى تمج بصور الدنيا والحياة على الأرض . وقد استوحى منها بعض أهل الفنون التشكيلية والموسيقية عناصر فى إنتاجهم الفنى . وقد أراد دانتى بكتابتها أن يعوض عما ناله فى حياته من العسف ونكران الجميل ، وأن يقيم عالماً يسوده الحق والعدل والصفاء والحرية والسلام .

والقياس صحيح بالنسبة لضرورة الأدب العربى لدراسة موضوعٍ ما من التاريخ العربى، أو بالنسبة لأهمية الأدب الإنجليزى لفهم التاريخ الإنجليزى، وهكذا . ودراسة الأدب بصفة عامة توسِّع عقل الإنسان وتصقل نفسه وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب . ولا بد للراغب فى كتابة التاريخ من أن يتذوّق الشعر لكى يفهم ملكة الخَلْق والابتكار . ويلزمه أن يقرأ شيئًا من القصص الأدبى لكى يتعلَّم فن عرض الموضوع ، وإبراز الحوادث الهامة . وبحث الشخصيات الأساسية والثانوية ، ووضع التفاصيل والجزئيات فى المكان الملائم ، وإحكام الإطار العام للموضوع الذى يدرسه . وإثارة انتباه القارئ ، وجعله قادرًا على استيعاب ما يُقدم إليه وتذوّقه . ويحسن بدارس التاريخ كذلك أن يلمّ بشىء من مذاهب النقد الأدبى ، إذْ أن دراسة حياة الأدباء . وتحليل آثارهم وتذوّقها ، ونقدها من ناحية اللفظ والموضوع والمعنى تقدِّم للمؤرخ ذخيرةً قيمةً تُعينه فى دراسته التاريخية .

والإلمام بنواحٍ من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصرٍ ما ، تساعد كذلك على فهم تاريخه . وهذه الفنون — كالآثار الأدبية — مرآة للعصر . فهذه الفنون فى مصر القديمة . أو فى آشور ، أو فى الهند أو فى الصين ، أو فى اليونان ، أو فى إيطاليا أو فى فرنسا . تعكس جميعها صورًا دقيقةً من حضارات تلك البلاد ، وتبين كثيرًا من خفايا أهلها ومن حياتهم الواقعة ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيهم .

فمَنْ يرغب فى دراسة ناحية من تاريخ عصر النهضة فى إيطاليا — مثلاً — يلزمه أن يعرف شيئًا من الفنون التشكيلية فى أواخر العصور الوسطى ثم فى عصر النهضة ذاته . وإن آثار تشيمابوى[1] وجوتّو[2] فى فن التصور لتوضّح كيف

---

(١) جوڤانى تشيمابووى (Giovanni Cimabue. ١٢٤٠ – ١٣٠٢) المصور الإيطالى الذى يعد من رواد الفن الحديث ، وربما كان معلماً لجوتو . وقد شرع فى الخروج على تقاليد الفن البيزنطى من حيث محاولته التعبير عن شىء من مكنون النفس الإنسانية ، من طريق سمة الرؤوس وشكل الأعين وملامح الوجوه ، التى بدأ يظهر عليها شىء من التفاوت التدريجى . ومن أعماله صورة « القديس يوحنا » فى كاتدرائية پيزا و « صور العريسكو فى كنيسة القديس فرنتسكو العليا » فى أسيسى ، وتنسب إليه صورتان « لعذراء والطفل والملائكة » فى متحف الأوفيتزى فى فلورنسا وفى متحف اللوفر فى پاريس .

(٢) أمبرودجو دى بوندونى المعروف بجوتو (حوالى ١٢٦٦–١٣٣٧ . Ambrodgio di Bondone detto Giotto) المصور الإيطالى الذى يعد أبا لفن الحديث . مضى فى الخروج على تقليد الفن الوسيط ، وتبدو على وجوهه وأعينه علائم التفكير ، وأعطى صوره عنصر البساطة والدراما وحقق فيه شيئاً من العمق . ومن آثاره «مشاهد من حياة يعقوب وأنا والعذراء مارية» ومن «حياة المسيح وآلامه» فى كنيسة الأريبى فى=

عبّر مصورو العصر عن محاولة الخروج على روح العصور الوسطى ، والسعى إلى التجديد والابتكار فى التعبير عن شىء من مكنون النفس البشرية ، من طريق ما يبدو فى حركة الأعين وسمة الوجوه ، ذلك المكنون الذى لم تكن روح العصور الوسطى تستسيغ أو تقوى على الإفصاح عنه ، باعتباره شيئًا من أسرار الله . وبالتدريج أخذ أهل الفنون — من رجال فن التصوير أو فن النحت — مثل بوتيتشلى[١] ، وليوناردو دا فنتشى[٢] ، ورافايلو[٣] ، وميكلأنجلو[٤] — أخذوا

= پادوا . ورسم «صوراً من حياة القديس فرنتشسكو» فى الكنيسة العليا فى أسيسى. ومن صوره أو من صور تلاميذه « صورة دانتى » فى شبابه فى متحف البارجلو فى فلورنسا . وشرع فى إقامة « برج الناقوس لكاتدرائية فلورنسا » . وقد اضمحل أثره الفنى فى أواخر القرن ١٤ ولكنه عاد إلى الظهور فى فن مازاتشو وميكلأنجلو .

(١) ساندرو بوتتشلى (حوالى ١٤٤٥ — ١٥١٠ . Sandro Botticelli) ربما كان أكثر مصورى عصر النهضة شاعرية ويمتاز فنه بالرقة واستيحاء الطبيعة والأساطير والإنسان ، وخطوطه مليئة بالحركة والحيوية وعنصر الدراما . وعمل فى فلورنسا فى زمن آل مديتشى . ومن آثاره « صورة الربيع » و « صورة ميلاد ڤينوس » فى متحف الأوفيتزى فى فلورنسا . وله صور فى كنيسة سكستوس فى الڤاتيكان ، واستوحى من كوميديا دانتى رسوماً أصولها موجودة فى الڤاتيكان ، وهى منشورة فى بعض طبعات الكوميديا أو بعض ترجماتها .

(٢) ليوناردو دا ڤنتشى (١٤٥٢ — ١٥١٩ . Leonardo da Vinci) من أعظم رجال الفن فى العالم . ولد فى ڤنتشى بالقرب من إمپولى . وهو ابن غير شرعى . تتلمذ على ڤيروكيو فى فلورنسا . وامتاز بتعدد ملكاته واتساع ثقافته . برع فى الطبيعة والميكانيكا وفى تصميم آلات الحرب والهندسة والجسور والقلاع والأسوار وفى الجغرافيا والتشريح والموسيقى والشعر والنحت والتصوير . وكان هادئ الطبع قوى العضلات جميل الهيئة. وكان أشبه بإله بين البشر ، ولم يعشق النساء ، ولم يبن قلاعه الضخمة على قلب المرأة المتغير ، وأحب الناس جميعاً كأبنائه . ويمتاز فنه بالعمق والبناء الهندسى والرقة والجمال والتعبير عن مكنون النفس الإنسانية . ومن آثاره نسختان من « عذراء الصخور » إحداهما فى متحف اللوفر فى پاريس والأخرى فى المتحف الوطنى فى لندن ، وصورة « العشاء الأخير » فى كنيسة سانتا ماريا دلى جراتزي فى ميلانو ، و « مونا ليزا » أو « الجوكوندا » فى متحف اللوفر فى پاريس . وقضى سنواته الأخيرة فى قلعة كلو بقرب مقر فرنسوا الأول فى أمبواز على نهر اللوار .

(٣) رافايلو سانتزيو (١٤٨٣ — ١٥٢٠ . Rafaello Sanzio) من أعظم رجال التصوير فى العالم . ولد فى أوربينو . وعلى الرغم من أنه نشأ فى الريف ولم يلق ما لقيه ميكلأنجلو من الرعاية فى صباه فقد بلغ فنه مستوى معاصريه ليوناردو دا ڤنتشى وميكلأنجلو . درس فى پيروجيا فى مرسم البيروجينو وفى مرسم پنتوريكيو . وكان جميل الصورة رقيق الحاشية وامتاز فنه بالرقة واللطف ثم نما فنه وتأثر بليوناردو وميكلأنجلو . وكان غزير الإنتاج . ومن آثاره صورة « صلب المسيح » فى المتحف الوطنى فى لندن و « تتويج العذراء » فى متحف الڤاتيكان و « زواج العذراء » فى متحف بريرا فى ميلانو و « عذراء الجرانذوق » فى متحف پيتى فى فلورنسا و « سان جورج والتنين » فى المتحف الوطنى فى واشنجطون و « پارناسوس » و « الدسپوتا » و « مدرسة أثينا » و « خلاص القديس بطرس من السجن » و « لقاء ليو الأول وأتيلا » و « النار فى البورجو » وهذه كلها فى متحف الڤاتيكان . و « جوليو الثانى » فى متحف الأوفيتزى فى فلورنسا و « ليو العاشر » فى متحف پيتى فى فلورنسا و « التجلى » فى متحف الڤاتيكان .

(٤) ميكلأنجلو بوناروتى (١٤٧٥—١٥٦٤ . Michelangelo Buonarroti) من أعظم رجال=

يستوحون تراث الأقدمين فى الشرق والغرب ، كما استوحوا زمانهم وبيئاتهم ، واستلهموا مكنونات نفوسهم وما انطوت عليه جوانحهم ، ورسموا المنظور والعمق ، وصوّروا المادة ، واستخدموا الأشكال الهندسية ، ورسموا رؤى الطبيعة الساحرة ، وشرّحوا الجسد ، واعتبروه هيكلا للروح : وصار لكل جزء فيه عندهم مبنى ومعنى ، وأصبح كل خط من خطوطه وكل وضع أو لفتة أو حركة أو نظرة منه موضوعاً للتأمل والدرس والاستلهام . وبذلك تخلّصوا من قيود الزمن السابق عليهم وأوضاعه ، وعبّروا عن خفايا النفس البشرية ، وانطلقوا فى آفاق من الحرية والخَلْق والإبداع ، وقدّموا لإيطاليا وللعالم روائعهم الخالدة .

وإن الإلمام بشىء من فن العمارة القوطية ، فى فرنسا — مثلاً — فى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لأمرٌ ضرورىٌّ لِمَنْ يريد أن يدرس ناحية من تاريخها فى ذلك الزمان . فلقد قدم هذان القرنان نماذج رائعة من فن العمارة القوطية مُمثَّلاً فى تلك الكاتدرائيات العظيمة التى انبثقت فى كثير من الأنحاء ، ونشأت كثمرة لما سبقها من النمو التدريجى الروحى والعقلى والفنى ، منذ العصر القديم حتى زمانها . وقد تفانى الجميع ، من أغنياء وفقراء ، ومن رجال دين وملوك وأمراء ورجال أعمال وأصحاب حرف وعمّال ، فى بذل أموالهم وجهودهم المتنوعة جيلاً من بعد جيل ، فى صمت وصبر وجلد ودأب ، يحدوهم إيمان عظيم .

= النحت والتصوير فى العالم إن لم يكن أعظمهم . ولد فى كابريزى فى الأراضى الفلورنسية . التحق بمرسم جيرلانداىو ودرس آثار جوتو ومازاتشو واختاره لورنتزو العظيم للإقامة فى قصره حيث اعتنى برتولدو تلميذ دوناتيلو بتدريبه الفنى . حفظ ميكلأنجلو على الأقل أجزاء من كوميديا دانتى عن ظهر قلب ، ومزج فى فنه بين آراء الأفلاطونية المحدثة وتعاليم سافونارولا وروح دانتى . وكل الآراء والأمانى والمحن التى أحاطت بفلورنسا وروما ، وكل ما أحسه فى عزلته السامية ، أعطى فنه طابعاً من الألم والقوة والرقة والجمال والسمو فى آن واحد ، واكتشف لغة الجسد ، وكان يسمى بميكلأنجلو الإلهى . وكان يحس الغيرة من ليوناردو دا فنتشى ومع ذلك فقد اكتسب منه مزيداً من الحيوية فى رسم الحركة وفى التعبير عن مكنون النفس . ومن صوره « الأسرة المقدسة » فى متحف الأوفيتزى فى فلورنسا ، و « صور السقف فى كنيسة سستو » و « صورة الحكم الأخير » وهى فى كنيسة سستو ، و « صلب القديس بطرس » و « هداية القديس بولس » وهما فى قبة كنيسة القديس بطرس . ومن آثاره فى فن النحت « باخوس » فى متحف البارجلو فى فلورنسا ، و « البييتا » فى كنيسة القديس بطرس ، و « داود » فى متحف الأكاديمية فى فلورنسا ، و « الأسيران » فى متحف اللوفر فى باريس ، و « عذراء بروج » فى كنيسة نوتردام فى بروج فى بلجيكا ، و « موسى » فى كنيسة سان پيتر و إن ڤنكولى فى روما ، و « الليل » و « النهار » على قبر جوليانو دى مديتشى ، و « الفجر » و « المساء » على قبر لورنتزو دى مديتشى فى فلورنسا . ومن آثاره فى فن المعمار « قبة كنيسة القديس بطرس » . وله شعر رقيق . ومات فى روما ، وأعيد دفنه فى كنيسة سانتا كروتشى فى فلورنسا .

وظهرت الكاتدرائيات العظيمة فسيحة الأرجاء ، مُدبَّبة الخطوط والأقواس ، تغمرها أطياف من النور الممتزج بألوان رسومها على ألواح نوافذها الزجاجية العالية ، وبدت خفيفةً ، متوثِّبةً ، شامخةً ، منطلقةً ، نزّاعةً إلى أجواز الفضاء اللانهائى . وعلى أبواب الكاتدرائيات وحوائطها وأعمدتها ونوافذها وأبراجها وفى جوّها ، شهد أهل العصر براعم جديدة تتفتّح معبرةً عن بزوغ ربيع مزدهر جديد . وسمعوا ألحانًا تأخذ بمجامع قلوبهم وتسمو بهم إلى أعلى علّيين ، وقرأوا فصولاً من الكتاب المقدس ، ومن حياة الأنبياء والبطاركة والقدّيسين ، ومن حياتهم الفكرية واليومية . وأصبحت الكاتدرائية تمثّل عنصرًا جوهريًّا فى حياة الناس وفكرهم وفى دنياهم ودينهم . وكان الناس يأتون إليها ويذهبون جيلاً فى إثر جيل ، بينما تظل هى شامخة صامدة على الزمان أبداً .

وبذلك نجد الكاتدرائية القوطية تعبر أصدق التعبير عن روح العصر الذى آذن بميلاد حضارة جديدة ، أخذت تخلص رويدًا رويدًا من آراء الفكر المدرسى ، ويتجه فيها النظام الإقطاعى إلى أن يُسلم زمام الأمور بالتدريج إلى المدن النامية الجديدة ، وإلى الروح القومى الوطنى الجديد . وكذلك تفسر الكاتدرائية القوطية عناصر جوهرية فى بناء الحضارة الأوروبية الحديثة النزّاعة إلى الآفاق اللانهائية أبدًا * .

وكيف يمكن لِمَنْ يرغب فى دراسة ناحية من تاريخ عصر النهضة فى إيطاليا بخاصة ، أو من تاريخ إيطاليا بعامة أو ناحية من تاريخ فرنسا مثلاً — كيف يمكنه أن يستوعب ما يدرسه منها ويدرك دخائلها ، دون أن يكون ذا حظ مناسب من هذه الثقافة الفنية التشكيلية أو المعمارية ؟ لقد أدركت الجامعات ومعاهد العلم

---

* من الأمثلة على الكاتدرائيات القوطية فى فرنسا نجد كاتدرائية نوتردام فى شارتر على مقربة من جنوب غربى باريس ، وأنشئت خلال فترات من النصف الأول من القرن ١١ إلى النصف الأول من القرن ١٣ ، وظلت تدخل عليها إضافات وتحسينات خلال القرون ١٦ و ١٧ و ١٨ . وكذلك كاتدرائية نوتردام فى رانز على مقربة من شمال شرق باريس ، وبدئ فى إنشائها فى أوائل القرن ١٣ واكتملت فى أوائل القرن ١٤ وظلت تدخل عليها إضافات وتحسينات فى ذلك القرن . وقد أصيبت بأضرار بالغة فى أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ولكن أعيد ترميمها وإصلاحها . وكذلك نجد كاتدرائية نوتردام فى باريس القائمة فى جزيرة السيتيه وسط نهر السين ، وأنشئت منذ أواخر القرن ١٢ واستكمل بناؤها بفنونه وتحفه فى منتصف القرن ١٤ ، وأدخل عليها شىء من الإضافة والإصلاح فى القرن ١٩ ، وتعد الكاتدرائية الرئيسة فى فرنسا .

فى كثير من أنحاء العالم المتحضر أهمية هذه الناحية ، فأدخلت هذا النوع من الثقافة الفنية — من حيث هى ثقافة فحسب — فى مناهج الدراسة فى كليات الآداب بها ، إلى حدّ إنشاء الكراسى الخاصة بالأساتذة فى بعض الكليات . والمقصود بذلك أن تخدم هذه الثقافة الفنية سائر الدراسات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية ، والتى من بينها دراسة التاريخ ، فضلاً عما فى هذه الثقافة فى حدّ ذاتها من السعى إلى السمو بالروح وتهذيب النفس . ومجمل القول هو أن دراسة شىء من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة لعصرٍ ما ، يُساعد على دراسة تاريخه والكتابة عنه .

والحال على هذا المنوال بالنسبة لفنون الموسيقى وما يرتبط بها من فنون المسرح والرقص ، التى تُعدّ كذلك من المرايا الصادقة التى تعكس أو تكشف عن كثير من الوقائع والحقائق الخاصة بعصور التاريخ ، والتى لا تكفى الكتابات التاريخية أو الوصفية أو الأدبية فى التعبير عنها . فمَنْ يرغب فى دراسة ناحية من تاريخ العصور الوسطى ، يحسن به أن يلمّ بأشياء عن الألحان الجريجورية الكنسية التى تصوّر إيمان الناس وشكواهم مما حلّ بهم من اضطراب الحياة فى جزء كبير من قرونها المتتابعة ، وابتهالهم إلى الله أن يرفع عنهم ما نزل بهم من المحن ، كما توضّح تفانى بعض رهبانهم فى محبة الله والبشر[1] . وكذلك يجمل به أن يعرف أشياء عن الألحان الشعبية — ذات النغمة الواحدة — أى المونوفونية — التى كانت تصدح بها آلات شعراء التروبادور ، المتأثرة بألحان شعوب المشرق حتى بلاد الهند ، والتى كان أولئك الشعراء يؤدونها أحيانًا مصحوبةً بحركات الرقص الجماعى الدائرى أو المتقابل وأحيانًا مصحوبةً بالغناء ، والتى لا يزال المدروس والمحفوظ والمسجَّل منها يُنبئ عن أوجه الشبه والتأثير المتبادل بين تراث الشرق والغرب[2]. وكذلك ينبغى عليه أن يدرك شيئًا عن النموّ الموسيقى المتدرّج

---

(١) الألحان الجريجورية (Gregorian Chants) مجموعة كبيرة من ألحان الموسيقى الدينية ترجع إلى أصول قديمة وثنية وعبرية ووسيطة ، ويرجع أساس نموها إلى صدق الرهبان وإخلاصهم وإحساسهم بحال العالم فى العصور الوسطى وتطلعهم إلى عالم أفضل فى الدنيا والآخرة ، بتمجيد الرب والتقرب إليه ، وبالتفانى فى محبة الله والبشر . وعنى المختصون بدراستها وتسجيلها فى القرن الحالى .

(٢) موسيقى التروبادور (Troubadour) هى موسيقى الشعراء المبتكرين من الأمراء والنبلاء والفرسان ومن الشعراء الطوافين الذين ظهروا فى البروفنس فى جنوبى فرنسا من أواخر القرن ١١ إلى أواخر =

بظهور الألحان المسماة بالألحان، البوليفونية ، المتعدّدة فى درجات الأداء ، المُفارقة المتقابلة المتجاوبة الصاعدة الهابطة المتآلفة ، التى اتضحت فى التوزيعات الموسيقية المتنوعة ، والتى استطاعت بالتدريج أن تعبّر عن كثير مما يعتمل فى نفوس البشر من المعانى، وما يقع تحت حسّهم من المشاهد . ويحسن به أن يتذوّق أشياء من فنون لمسرح الدينى أو المشاهد التمثيلية التى كانت تُقام فى ذلك الزمان[١].

و إن تذوّق طرفٍ من موسيقى العصر المسمى بما قبل الرومنسى فى مجالى الفن والأدب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتى تبلورت فى روائع الألحان التى ألفها أمثال بالسترينا[٢] ، أو مونتفيردى[٣]، أو ڤيڤالدى[٤] ، أو باخ[٥] ،

= القرن ١٣. وهم متأثرون بفن الأندلس والمشرق . وبقى شىء من ألحانهم التى درست وسجلت فى أوروبا ، ويوضح الاستماع إليها مدى العلاقة بين ألحانهم وألحان المشرق حتى الوقت الحاضر ، وإن كان العالم الغربى قد تطورت موسيقاه ونمت منذ ذلك الزمن حتى الآن ، بناء على الدراسة والثقافة ورهافة الحس وحسن الذوق والإخلاص والعبقرية .

(١) يتضح هذا بدراسة بعض المشاهد الدينية المعاصرة مثل الفصول التى كانت تستوحى من الكتاب المقدس مثل « تمثيلية دانيال » أو « تمثيلية آدم » أو بعض ما كان يقام فى الأعياد الدينية ، وما كان يشتمل عليه من الترنم والإنشاد والحوار باللهجات العامية ، وما تضمنه ذلك كله من العنصر الدرامى أمام القدر ، وما احتوى عليه أحياناً من ألحان التروبادور وأغانيهم ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

(٢) جوڤانى پيرلويدجى دا پالسترينا (١٥٢٥ – ١٥٩٤ . Giovanni Pierluigi da Palestrina) من أعلام الموسيقى الدينية فى إيطاليا ولد فى پالسترينا بقرب روما ومات فى روما . عمل فى خدمة الكنيسة وهضم وبلور كل ما حققته الموسيقى الدينية فى القرن ١٦ ، وله ترانيم وقداسات كثيرة وسمى بأمير الموسيقى . وكان قساً فى فترة من حياته.

(٣) اكلاوديو مونتفيردى (١٥٦٧ – ١٦٤٣. Claudio Monteverdi) موسيقى إيطالى ولد فى كريمونا وارتحل فى إيطاليا وسافر إلى الفلاندر والمجر ومات فى البندقية . اشتهر فى ميدان الأوپرا ومن مؤلفاته « أورفيو » و « عودة أوليسيس » وله ترانيم دينية . وكان قساً .

(٤) أنتونيو ڤيڤالدى (١٦٨٥ – ١٧٤١. Antonio Vivaldi) موسيقى إيطالى عظيم فيما قبل العصر الرومنسى . ولد فى البندقية وارتحل فى إيطاليا وسافر إلى هولندا والنمسا ومات فى ڤينا . وضع أكثر من ٢٥٠ كونشيرتو ومنها ما هو للكمان أو الفلوت أو التتلو كما وضع قداسات دينية وأوپرات ، وقد تأثر به باخ إلى حد أنه نسخ وأعاد كتابة بعض ألحانه للهارپسكورد . وتتراوح موسيقاه بين الرقة والهدوء والسرعة والبهجة والأسى والشجن والصوفية . وعاش أغلب وقته فى البندقية مشرفاً على ملجأ للفتيات اللقيطات اللائى كان يجعل منهن عازفات ماهرات للموسيقى . وكان يطلق عليه لقب القسيس الأحمر بسبب لون شعره . وقد ذاع صيته فى بلاده وفى أوروبا فى أثناء حياته ، ولكن أهملت موسيقاه بعد وفاته ، وربما قبيل ذلك ، وظل مجهولا حتى استرد باخ شهرته ، وعندئذ كشف فن هذا الفنان العظيم .

(٥) جان سباستيان باخ (١٦٨٥ – ١٧٥٠ . Johann Sebastian Bach) الموسيقى الألمانى الشامخ فيما قبل العصر الرومنسى ولد فى أيزيناخ وارتحل فى ألمانيا ومات فى ليبتزج . وضع كثيراً من الألحان الدينية والدنيوية . وفى موسيقاه رقة وعذوبة وحنين وابتهال وصوفية وتجريد . ومن أشهر ما ألفه « آلام المسيح بحسب رواية القديس متى ». وله سوناتات وكونشيرتوات ومتتابعات وفوجات وقداسات =

أو هيندل[١] ، والتى تتضمن ألحانًا علوية أو ألحانًا تصف الطبيعة ، أو ألحانًا دينية تعبّر عن عذاب البشرية وخلاصها ، أو ألحانًا تعبّر عن نواح من خفايا النفس البشرية — يساعد بلا ريب فى جعل المتذوّق أقدر على فهم روح هذين القرنين ، وأقوى على الكتابة فى الموضوع التاريخى الذى يقع اختياره عليه منهما بخاصة ، أو فى دراسة التاريخ والكتابة عنه بعامة .

وبعض موسيقى بيتهوفن — مثلاً — تعبّر عن ثورته أو حملته على طغيان نابليون على أوروبا ، فى مطالع القرن التاسع عشر ، وعلى الأخص سيمفونيته الثالثة المسماة بالبطولة ، التى تُعدّ نقدًا موسيقيًا عارمًا لطغيان الفرد ، لم يكد يفهمه أحد فى زمانه[٢] . وموسيقى ڤيردى فى بعض أوپراته — مثلاً — تُعدّ كذلك حملةً صادقةً على الطغاة وانتصارًا لدعاة الحرية فى إيطاليا — بل فى أوروبا والعالم — فى أثناء القرن التاسع عشر[٣]. وإن المتذوق لأشياء من فنهما يصبح دون شك

= للآلات الوترية والقلوت والأورغن. وتزوج مرتين وأنجب عشرين ولداً وبنتاً ، وكف بصره فى آخر عمره . وأهمل أمره بعد حوالى القرن من وفاته ، ومن مكتشفيه فيلكس مندلسون فى القرن التاسع عشر .

(١) جورج فردريك هيندل (١٦٨٥ — ١٧٥٩ . George Frederic Haendel) الموسيقى الألمانى الشامخ فيما قبل العصر الرومنسى . وكان مولده فى هال . وهو ابن رجل ماريس الحلاقة والجراحة ، وولد لأبيه بعد أن تجاوز الستين وبعد أن تزوج من امرأة شابة عقب نجاته من مرض كاد يودى بحياته . درس القانون إزاء إصرار أبيه ولكنه اتجه إلى الموسيقى . وارتحل إلى إيطاليا . وانتقل إلى إنجلترا حيث اكتسب الجنسية الإنجليزية فى عهد جورج الأول الألمانى الأصل . وحينما أراد الزواج اشترطت عليه أسرة فتاته أن يترك الموسيقى التى كانت عندهم مهنة غير مشرفة ، فلم يتزوج سوى الموسيقى . وتمتاز موسيقاه بالرقة والعذوبة والفخامة وبعنصر الصوفية والدراما . وكتب كونشيرتوات وسوناتات ومتتابعات للآلات الوترية والقلوت والأورغن . وله ألحان دينية مثل « المسيح » و « البعث » و « سليمان » . ووضع أوپرات مثل « برتيس » و « يوليوس قيصر » و « أورلاندو » وكف بصره فى أواخر حياته . ومات فى لندن .

(٢) لودڤيج فان بيتهوڤن (١٧٧٠ — ١٨٢٧ . Ludwig Van Beethoven) يعده بعض النقاد أعظم الموسيقيين طرا . ولد فى بون وهو ألمانى من أصل هولندى وقضى أغلب عمره فى ڤينا . كان حاد المزاج معتدا بنفسه . وكان أول من رفع مقام رجال الموسيقى من مجرد الأتباع فى قصور الملوك والأمراء إلى مقام رجال الفن المحترمين . وتعطش إلى الحب دائماً ولكنه لم يظفر به أبداً . وعانى من ضعف السمع حتى فقده تماماً فى السنوات الخمس الأخيرة من حياته . وتمتاز موسيقاه بعناصر من القوة والضخامة والرقة والعذوبة ، وفيها الطموح والسمو والبهجة والسعادة والأسى والشجن والصوفية على السواء . وهو المعبر بموسيقاه عن عصر الاستنارة والحرية وكان يكره الاستبداد فى شتى صوره . ومن أعماله الرباعيات الوترية والسوناتات والكونشيرتوات والسيمفونيات التسع وأوپرا « فيدليو » و « القدامى الكبير » . وودعه إلى مقره الأخير ٢٠٠٠٠ نسمة من أهل ڤينا .

(٣) جوسيپى ڤيردى (١٨١٣ — ١٩٠١ . Giuseppe Verdi) مؤلف الأوپرات الإيطالى الشهير ولد فى الرونكولى ومات فى ميلانو . ومن آثاره « ماكبث » و « عطيل » و « فالستاف » و « ريجوليتو » و « التروڤاتورى » و « التراڤياتا » و « قوة القدر » ووضع « أوپرا عايدة » بناء على =

أقدر على فهم روح القرن التاسع عشر ، وما ساده من الصراع بين التقدّم والرجعية وبين الطغيان والحرية ، وبذلك تصبح دراسته والكتابة عن أية ناحية من تاريخه أقرب إلى الواقع والحقيقة التاريخية .

وكما رأينا فى فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة ، نجد أن كثيراً من الجامعات ومعاهد العلم فى أنحاء العالم المتحضر ، قد أدركت أهمية الثقافة الفنية الموسيقية ، فجعلتها من بين مناهج الدراسة فى كليات الآداب بها ، إلى حدّ إنشاء الكراسى الخاصة بالأساتذة . بل وتوجد فى كثير من جامعات الغرب فرق موسيقية مكونة من الموهوبين من الأساتذة والطلاب ، الذين يقومون معاً بعزف روائع الموسيقى الكلاسية ، فى جو من التفاهم والتآلف والمحبة . والمقصود بهذا أن تخدم هذه الثقافة الفنية سائر الدراسات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية ، والتى من بينها دراسة التاريخ ، فضلاً عما فى هذه الثقافة الفنية الموسيقية فى حدّ ذاتها من العمل على تهذيب النفس والسمو بالروح .

ومن النواحى الهامة لِمَنْ يرغب فى دراسة التاريخ وكتابته ، أن يعرف صورة عامة عما عرفه العالم عن التاريخ . فينبغى عليه أن يقرأ مختارات من بعض آثار المؤرخين السابقين القدماء منهم والمحدثين ، مثل هيرودوت[1] ، وتوسيديد [2] وليڤى [3] ،

= طلب الخديو إسماعيل بمناسبة افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩ ومثلت فى القاهرة فى ١٨٧١ . وتعبر بعض مؤلفاته عن الروح الوطنية الناهضة للدفاع عن الحرية ، واعتبر رمزاً للوطنية الإيطالية فى القرن التاسع عشر ، وكثيراً ما كان يصطدم بالرقابة على المؤلفات الموسيقية . وتزوج مرتين وأصبح عضواً فى البرلمان الإيطالى بعض الوقت .

(١) هيرودوت (حوالى ٤٨٠ ق . م . — حوالى ٤٢٥ ق.م. Herodutus) يعرف بأبى التاريخ وهو من مواليد هاليكارناسوس فى آسيا الصغرى . قام برحلات كثيرة منها أسفاره إلى اليونان وجنوبى إيطاليا ومصر وبابل ، ووضع كتابه فى التاريخ الذى سجل فيه ما رآه وما سمعه وما قرأ عنه ، ويمتاز بملكة النقد والتحرى بقدر ما كان ذلك مستطاعاً فى زمنه .

(٢) توسيديد (حوالى ٤٦٠ ق. م . — حوالى ٤٠٠ ق. م. Thucydides) هو المؤرخ الأثينى . واشتغل بالجندية فكان أحد القواد فى الحرب بين أثينا واسپرطة ، وحينما أخفق فى هزيمة براسيداس ولم يستطع أن يخلص أمفيپوليس تقرر نفيه فعاش فى المنفى ٢٠ سنة ثم عفى عنه . وضع كتاباً عن الحرب البلوپونيزية ، ويعد من أهم المؤلفات التاريخية ، ومع أنه كان يميل إلى پركليز فقد امتاز بالعدالة على وجه العموم ، ويمتاز بأسلوبه المركز البيانى وبطريقته العلمية من حيث التحرى والربط بين الحوادث .

(٣) ليڤى (٥٩ ق . م. — ١٧ م . Titus Livius) ولد فى پادوا وعاش فى روما . كرس حياته للأعمال التاريخية والأدبية فألف كتاباً فى تاريخ روما . وعلى الرغم من تفضيله النظام الجمهورى فقد كان من المقربين إلى أغسطس قيصر . ووضع كتابه تمجيد روما وبيان الأسباب التى أصابت إمبراطوريتها بالاضطراب فى القرن الأول قبل الميلاد . واعتبر الأساطير معبرة عن طبيعة الشعب الرومانى وروحه . وطريقته ليست علمية أو نقدية بالموازنة بتوسيديد ولكن كتابته حية وأسلوبه واضح بليغ .

وماكيافلى [١] ، وڤيكو [٢] ، وجيبون[٣]، وميشليه [٤] ، ورانكه [٥] ،

---

(١) نيقولا ماكيافلى (١٤٦٩ – ١٥٢٧ . Niccolò Machiavelli) هو السياسى والمؤرخ الفلورنسى من مواليد فلورنسا . عاش فى زمن ساڤونارولا وآل مديتشى وشغل بعض الوظائف فى حكومة فلورنسا وقام بسفارات دبلوماسية فى إيطاليا وفى فرنسا وانتيرول . وفقد وظيفته بطرد آل مديتشى من الحكم وعانى من الحرمان . ووضع كتاب « الأمير » الذى استمده من ظروف إيطاليا المضطربة ، وهو عبارة عن اراء ونصائح للحاكم لكى يخرج بإيطاليا من الفوضى إلى حياة الاستقرار والسلام . وأصبح اسمه مقروناً بالغدر والخداع لبلوغ المآرب ، ولكن هذا لا يتفق مع حقيقة آرائه إذ أنه دعا إلى اتباع كافة الوسائل ، حتى المنافية لقواعد الأخلاق والدين ، ليس لبلوغ مطلق الغايات بل لبلوغ الغايات النبيلة فحسب ، والتى تهدف إلى مصلحة الدولة ، وإن كان هذا لا يمكن تطبيقه عملياً ، وما أندر أن يعترف أحد من الحكام أو من رجال السياسة بأنه كان له غايات شريرة . ودعا إلى تركيز السلطة فى يد الحاكم القوى فى فترة مؤقتة تنتهى إلى الحياة الديموقراطية الحرة القائمة على الانتخاب العام ، لأن اشتراك الرؤوس الحرة فى تدبير شؤون الدولة هو الوسيلة الوحيدة لصلاح المجتمع . ومن مؤلفاته كتاب فى « تاريخ فلورنسا » وقد نظر فيه إلى فلورنسا ككائن حى وحاول أن يحلل عوامل الخلاف الداخلى وأثرها على السياسة الخارجية ، وعمل على إيجاد حل لمشكلات السياسة بدراسة أحداث التاريخ . ولماكيافلى آراء فى الاقتصاد وفى الدين وفى فن الحرب . وكتب رواية « ماندراجولا » التى تعد سابقة على بعض ما كتبه موليير فى القرن السابع عشر . ونثر ماكيافلى واضح بسيط مركز ويعد أسلوبه مرحلة هامة فى نمو اللغة الإيطالية . وعلى الرغم من أن أغلب ما كتبه يدل على أنه كان رجلا رزيناً متزناً لا يبدو على وجهه أثر الانفعال ، فقد كان فى الحقيقة رجلا مرهف الحس عميق الشعور ، وتألم كثيراً لانحراف إبنه وفساده . ونجده مثلا فى آخر كتاب الأمير يتكلم بحرارة عن إيطاليا التى لا رأس لها . وكتب أيضاً شعراً ربما لا يعرفه الكثيرون ولكنه يفيض بالإحساس مثل :

إنى أؤمل والأمل يزيد من عذابى ،
وأبكى والبكاء يغذى قلبى المكدود ،
وأحترق ولكن احتراقى مختف تحت سطح رقيق .

(٢) جوڤانى باتيستا ڤيكو (١٦٦٨–١٧٤٤ .Giovanni Battista Vico) الفقيه والفيلسوف والمؤرخ الإيطالى . ولد فى نابل وعلم فى جامعتها . أهم مؤلفاته « أسس علم جديد حول الطبيعة العامة للشعوب » و « القانون العالمى » . درس العلاقة بين تاريخ القانون وتطور العقل . وتاريخ البشرية عنده يتمثل فى سلسلة من عمليات التقدم التى تدرجت فى أدوار متتابعة من الإلهى إلى البطولى إلى البشرى ، وتتضح آثار ذلك فى نوع الحكومة وخصائص اللغة والأدب والتشريع ومشخصات الحضارة على وجه العموم .

(٣) إدوارد جيبون(١٧٣٧ – ١٧٩٤ . Edward Gibbon) المؤرخ الإنجليزى . انتقل بين إنجلترا وسويسرا وزار فرنسا فى زمن دلامبير وديدروكا زار إيطاليا . نشأ محباً للدرس والقراءة ووضع كتابه الشهير عن « انحلال وسقوط الدولة الرومانية » ويمتاز بأسلوبه الأدبى وبالدقة والتحرى فى استخلاص الحقائق التاريخية على وجه العموم ، وإن كان قد وقع فى أخطاء وتعميمات غير صحيحة ، كشفت عن حقائقها البحوث التالية على زمنه ، وذلك فى الجزء من كتابه الذى يغطى الحوادث من ٤٦١ إلى ١٤٥٣ .

(٤) جول ميشليه (١٧٩٨ – ١٨٧٤ . Jules Michlet) المؤرخ الفرنسى . علم التاريخ فى الكوليج دى فرانس . ومن مؤلفاته « تاريخ فرنسا » و « تاريخ الثورة الفرنسية » . ويمتاز بنجاحه فى بعث الماضى فى صورة جذابة وإن كان يعد غير محايد فى كتابته . وتسببت أفكاره الحرة فى تعطيل محاضراته بعض الوقت . وله أعمال أدبية تمتاز بأسلوبها الوجدانى مثل « الجبل » و « العصفور » .

(٥) ليوپولد فون رانكه (١٧٩٥ – ١٨٨٦ . Leopold Von Ranke) المؤرخ الألمانى . ولد فى ثورينجيا . درس الكلاسيات واللاهوت فى هال وبرلين . وعلم فى جامعة برلين . قام بأبحاث فى دور لأرشيف فى إيطاليا . كان من مؤيدى مترنيخ ولذلك فقد كرهه الأحرار . ومن مؤلفاته « تاريخ الملكيتين العثمانية والأسبانية » و « ثورة الصرب » و « البابوية الرومانية ، تاريخها ودولتها فى القرنين ١٦ و ١٧ . =

والطبرى[١] وابن خلدون[٢]... وعليه أن يقرأ شيئًا من المؤلفات الحديثة فى تاريخ العالم بعامة ، ثم يتزوّد بالقراءة عن العصر أو الناحية التى يرغب فى تناولها بخاصة . وبذلك يلمّ بثقافة تاريخية عامة وخاصة ، كما يعرف الطرق المختلفة التى اتبعها المؤرخون فى كتاباتهم ، ويتبيّن خصائصهم ومزاياهم وعيوبهم ، ويفيد بكل هذا فوائد عظيمة النفع . ولا يُعقل أن يعكف دارسٌ ما على دراسة ناحية تاريخية معينة فجأةً وتوًّا ، ودون أن يعرف موضع هذه الناحية من الدائرة المحيطة بها مباشرة ، ثم موضعها من الدوائر الأوسع نطاقًا ، بل وموضعها من العالم كله ، ولا يتأتى هذا بغير الإلمام بقدر مناسب من الثقافة التاريخية العامة والخاصة على السواء.

= ويعد من أوائل المؤرخين بالمعنى العلمى الحديث. وامتاز كأستاذ ومعلم ومدرب للطلاب على البحث العلمى . وحاول ألا يتأثر بعوامل التحيز الفكرية أو السياسية أو الدينية فى سبيل الوصول إلى الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٥ – ٣١٠ هـ . أى ٨٣٨–٩٢٣ م .) ولد فى آمل من أعمال الرى . قام برحلات عديدة إلى مصر والعراق والحجاز والشام ، واستقر فى بغداد . وهب حياته للعلم وحده ولم يتول وظيفة ولم يتقرب إلى سلطان وكان رجلا حر الفكر ورمزاً على العلم والرجولة والخلق الكريم ، وكان إنساناً فى معاملة الناس حسن العشرة عارفاً بآداب السلوك ، ولم يعرف التزمت ، وكان يداعب أصحابه بالفكاهة اللطيفة . ودرس الطبرى علوم العصر كالحديث والقرآن والتفسير واللغة والشعر والرياضيات والطب . ومن مؤلفاته « جامع البيان فى تفسير القرآن » ، وهو ليس تفسيراً فحسب بل موسوعة شاملة للعلوم الإسلامية حتى زمانه . وكتب تاريخ العالم المسمى « تاريخ الرسل والملوك وأخبارهم » . واتبع الطبرى فى تاريخه طريقة بحثه فى الحديث والتفسير من حيث إثبات الأسانيد المتعددة حتى مصدرها الأول مع ذكر الروايات المختلفة فى شأن الخبر الواحد . والتاريخ عنده تاريخ الهداية البشرية . وأورد معلومات قيمة عن تاريخ الفرس القديم ، ولكن معلوماته عن قدماء المصريين واليونان والرومان قليلة ، ولم يوف تاريخ الغرب الإسلامى حقه من البحث . وأعظم أجزاء تاريخه قدراً هى الخاصة بالعصر الأموى والعصر العباسى الأول . ومع أنه كان معاصراً لأحداث القرن الثالث الهجرى فلم يؤرخ لها بل آثر السكوت عن الكثير . وللطبرى الفضل فى أن جعل التاريخ علماً ثابت الأصول والمنهج مستقلا بنفسه عن الحديث والتفسير . ويعد عميد مؤرخى الإسلام .

(٢) ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ . أى ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م .) ولد فى تونس حيث درس بها . اشتغل بخدمة الدولة . وارتحل مسافراً حيناً كما قام بعدة سفارات فى آسيا وأفريقيا والتقى بتيمور لنك فى دمشق . اشتهر بـ « مقدمة » كتابه المسمى « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . وهو من رواد فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع . يجعل التجربة أساس العلم بالعالم وليست الفلسفة القائمة على أساس المنطق ، ويقصد بالتجربة تجربة البشرية كلها ، وفائدة المنطق هى رسم الطريق إلى صحة الاستدلال . ويذكر ما يتعرض له المؤرخ من المغالط والأوهام ، ويدعو إلى دراسة التاريخ على أساس ربط العلة بالمعلول . وموضوع التاريخ عنده هو الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها من أفعال ومنازعات وحكومات وعلوم وصناعات ، ويتكلم عن نشوء الحضارة وازدهارها وتدهورها وزوالها وعن ظهور شعب جديد يحل مكان الشعب المنهار . ولكنه لم يطبق ما دعا إليه عند وضع كتابه المشار إليه . وتوفى بالقاهرة .

ومن المفيد أيضًا أن يلمّ الباحث فى « التاريخ » بطائفة أخرى من العلوم المساعدة . فيلزمه أن يدرس شيئًا من المنطق الذى يفيده فى بنائه التاريخى . وكذلك يفيده الإلمام بتقسيم العلوم فى أن يفهم موضع التاريخ من سائر العلوم . كما ينبغى عليه أن يدرس أشياء من فلسفة التاريخ وآراء المفكرين فيه مثل اشپنجلر (١) ، وبرجسون (٢) ، وكروتشى (٣) ، وكولنجوود (٤) . وهو فى حاجة كذلك إلى أن يعرف أشياء من علم الآثار ، ومن علم الأجناس ومن علم الاجتماع ، ومن علم النفس ، ومن القانون ، ومن النظريات السياسية ، ومن علم الإحصاء ، ومن الرياضة

(١) أوزفلد اشپنجلر (١٨٨٠ — ١٩٣٦ . Oswald Spengler) الفيلسوف الألمانى . جمع بين دراسة الرياضة والتاريخ الطبيعى والفن والتاريخ . وضع كتابه عن « انحلال الغرب » . وهو يقول بأن معرفة التاريخ هى معرفة فطرية وجدانية وإنه على المؤرخ أن يتوسم من خلال الآثار والأخبار والأرقام روح الحضارة . ويرى قيام تشابه بين دورات الحضارة من حيث النشأة والنمو والنضج والشيخوخة والفناء . وهو يتعسف حينما يقول بإمكان التنبؤ يقينياً بمستقبل الحضارة بناء على دراسة الحاضر . ويتعسف كذلك حينما يعتبر الحياة والتاريخ قائمين على من يتميزون بالإرادة والعزيمة والقوة دون أهل العلم والفكر والمثل العليا ، إذ أن الحياة والتاريخ قائمان على أكتاف هؤلاء جميعاً .

(٢) هنرى برجسون (١٨٥٩ — ١٩٤١ . Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسى . درس فى باريس وعلم فى ليسيه هنرى نرابع وفى مدرسة النورمال (المعلمين) وفى الكوليج دى فرانس . وحصل على جائزة نوبل فى الآداب فى سنة ١٩٢٧ . وتقوم فلسفته على دوام الإنسان واستمراره وعلى تطوره ونموه . والحياة عنده سلسلة واحدة من الأفعال يتكون منها التاريخ ، وهو يؤمن بالغائية العامة التى تنتظم الحياة كلها وتشملها برباط واحد لا ينفصم . ومن مؤلفاته « التطور الخالق » و « إمكانية التغير » و « الطاقة الروحية » ويمتاز أسلوبه بالوضوح والرشاقة والإيجاز وحسن التلوين .

(٣) بنيديتو كروتشى (١٨٦٦ — ١٩٥٢ . Benedetto Croce) ولد بقرب نابلى واشتغل بالتاريخ والفلسفة . شغل منصب وزير التعليم بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية . وكان رجلا حر الفكر ومن معارضى النظام الفاشى . ومن كتاباته « شعر دانتى » و « التاريخ كفكر وكفعل » و « نظرية وتاريخ كتابة التاريخ » . تدرج فى تفكيره التاريخى ، فمن آرائه أن الفلسفة تعبر عن المفاهيم المجردة للتاريخ ، وبذلك تصبح عنصراً فى بناء التاريخ . ومن آرائه أيضاً أنه لا بد من توفر البصيرة التاريخية للمؤرخ ، وأن التاريخ ينبغى أن يدرس بوسائله الخاصة القائمة على جمع المصادر ونقدها وتفسيرها . ويحذر المؤرخ من المبالغة فى تخيل الماضى وتقمص شخصيته ، ومن التحيز للنزعات الوطنية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية . . . إذ لا بد للمؤرخ من ألا يتجاوز فى تخيله وإحيائه الماضى حدود الوثائق والمصادر التى يستخلص منها الوقائع والحقائق التاريخية .

(٤) روبين جورج كولنجوود (١٨٨٩ — ١٩٤٣ . Robin George Collingwood) . درس فى أكسفورد . وهو حجة فى حضريات بريطانيا وتاريخها فى العصر الرومانى وهو فيلسوف كذلك . من مؤلفاته « فكرة الطبيعة » و « أصول الفن » و « فكرة التاريخ » . ومن آرائه أن عمليات التاريخ تنتظم أعمالا لها زواياها الداخلية التى تتألف من عمليات فكرية ، وأن كل تاريخ ما هو إلا تاريخ للفكر ، وأن مهمة المؤرخ عرض الأحداث التى هى المظهر الخارجى للأفكار . وعنده أن الخيال التاريخى مرجعه إلى المؤرخ الذى لا يقبل الرواية إلا إذا اتسقت مع مقياسه العقلى ، وأن المؤرخ سيد نفسه ، وأنه فى الوقت الذى يكتشف فيه حريته كمؤرخ سيكتشف أيضاً حرية الإرادة الإنسانية بوصفها القوة الفعالة فى أحداث التاريخ .

أو الفلك أو النبات أو الحيوان . . . إذا ما عرضت له نواحٍ من هذه المسائل . وإذا لم يكن له بها معرفة سابقة فيمكنه تحصيل القدر الذى يكفيه منها لفهم الموضوع التاريخى الذى يعالجه ، حينما يصبح فى حاجة إلى ذلك .

ومن الضرورى للباحث فى التاريخ ألا يكتفى بتحصيل ثقافته العامة أو الخاصة من الكتب والمراجع فحسب ، دون دراسته وخبرته بالحياة العملية ذاتها ، سواء أكان ذلك فى دائرة أهله وعشيرته ، أم كان فى نطاق قومه وبلده ، أم فى محيط دوائر أوسع وأعم فى المجتمع الإنسانى . وإن الخبرة التى يكتسبها الباحث بالملاحظة والممارسة العملية ، بحسب ظروفه ، من شأنها أن تجعله أقدر على فهم أعمال الإنسان فى الزمن الماضى ، وتقدير الظروف التى أحاطت به ، والتى أدت إلى اتخاذه مسالك معينة فى مواجهة تيارات أو مؤثرات محدّدة . ولا يجوز لدارس التاريخ أن يكون فى عزلة عن البشر ، حتى يُصبح أقرب إلى فهمهم والكتابة عنهم ، مهما بَعُدَ بينه وبينهم الزمان ، إذْ أن الرابطة البشرية قائمة على الرغم من اختلاف الزمان والمكان .

ومن الأمور الأساسية للباحث فى التاريخ ألا يلتزم حدود بلده ، بل ينبغى عليه السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، فى سبيل البحث التاريخى فى حد ذاته ، ثم لكى يرى آفاقًا جديدةً ، ويكتسب خبرةً بأقوام وبيئات مختلفة . ومن الضرورى له أن يقضى فترةً أو فترات متعددة فى البلد الذى يدرس نواحى من تاريخه . ولعله يكون من المناسب أن يبدأ الباحث سفره بعد أن ينهى تعليمه الجامعى فى بلده الأصلىّ ، وبعد أن تتعيَّن له الناحية التى يرغب فى الكتابة عنها ، فيسافر وقد تزوّد بأسلحة نافعة ، ويمضى فى الدرس والكشف عن الوقائع والحقائق التاريخية . ويزور الأماكن المختلفة ويدرس ويتأمَّل ، ولكن عليه ألا يكون كالمُحدث الذى تبهره الأضواء الجديدة . والنفس العالية لا تشعر أنها غريبة فى أى مكان ، إذْ تحسّ الصلة والرابطة بينها وبين وطنها وبين شتى البلدان وسائر النفوس والأقوام والحضارات . ولا بد للباحث فى التاريخ — كغيره من أهل الدراسات الأدبية أو العلمية أو الفنية — لا بد له من متابعة أسفاره فى الداخل والخارج طوال حياته ، لأن ذلك يجدد ثقافته ويزيده علمًا وتجربةً على الدوام .

وفى أغلب الأحوال لا يمكن كتابة البحوث العلمية الأصيلة دون الارتحال والسفر ، والعدول أو التوقُّف عن السفر يعوق عجلة التقدّم ، ويوقف سير العلم ، ويصيب الأفراد والأمم التى ينتمون إليها بالركود والجمود والتأخر . ولقد كان أسلافنا من العرب فى عهد مجدهم ، كما كان أضرابهم من أهل زمانهم ، يجوبون الآفاق فى عصر الدابّة والشراع ، طلبًا للعلم . ولقد ازداد نشاط الأسفار فى طلب العلم فى عصر الآلات الحديثة ، فى الأمم المتحضّرة والناهضة والكبيرة والصغيرة على السواء ، إذْ أن ذلك من أسباب تقدّم الشعوب ونهوض العمران .

هذا كله موجز عن الثقافة والإعداد والخبرة اللازمة لمن يتصدّى لكتابة التاريخ . وليس المقصود بذلك التوسُّع أو التعمُّق فى كل هذه النواحى لذاتها ، إذْ أن هذا أمر فوق متناول البشر . ولكن المقصود أن ينال الدارس ما يلزمه بقراءة بعض الكتب العامة أو الخاصة ، وقد يزيد ذلك فى نواحٍ معينة من هذه العلوم المساعدة بحسب طبيعة الموضوع الذى يختاره . وقد يبدو من العسير جمع هذه الثقافة المتنوعة . ولكن تخصيص حوالى سبع أو ثمانى سنوات تفعل العجائب ، وتكفى للوصول إلى مستوى مناسب يزداد بالتدريج مع الزمن تبعًا لنوع الدراسة . وإن روح العلم الصحيح لا تعرف العقبات ، والإخلاص والصبر يبلغان بالباحث فى التاريخ — كما فى سائر العلوم — إلى غرضه فى أغلب الأحيان .